الاستشراق (★)

ادوار سعيد
مراجعة د. فايز ترحيني

تقذف المطابع العربية والأجنبية، يومياً، الكثير من المؤلفات، منها ما يذهب جفاء، ومنها ما يمكث في الأرض، وميزان ذلك « الفعل وردّة الفعل » . فالفعل يتمثل بغنى الكاتب الفكري، وسعة اطلاعه والتحوّل الذي تحدثه أفكاره في المجتمع. نقول « التحول »، لأن ثمّة مؤلفات تحدث شرخاً في تفكير القارىء، وتحثه على الرودان وطلب المزيد من المعرفة والاطلاع ليستقر على قرار. وردّة الفعل تتمثل بالضجّة الفكرية التي يحدثها ذلك الأثر، إيجابية كانت أم سلبية. وبقدر اتساع الفعل وردّة الفعل وعمقها، وبقدر تفاعل الآراء حولها يكون الكاتب حقق بعضاً من أهدافه.

نقول ذلك، ونحن أمام كتاب « الاستشراق » للدكتور ادوارد سعيد، ففعله كان فعل الزلزلة الفكرية، لما أثار من آراء، وإن لم تكن جديدة كل الجدّة[1]، فإنها تشكل معلمة فكرية متكاملة، ينبغي التمعّن فيها ودراستها بعمق وجدّية، بغية رصد خيوط « المؤامرة » التي يحيكها لنا الغير، من خلال انكبابهم الدؤوب على معرفتنا. وردّة الفعل عليه كانت متعددة[2]، بمستوى الأفكار التي طرحها الكاتب بصراحة وعمق قلما يجرؤ عليها الآخرون. ويكفي أن نذكر أن الكتاب صدر بالانكليزية وتُرجم إلى تسع لغات - هي: الفرنسية، الالمانية، الاسبانية، الايطالية، التركية، الفارسية، الماليزية، اليابانية والعربية - في أقل من ثلاث سنوات.

وقبل أن أجري حرفاً على طرس - في صميم موضوعي - أشير إلى الصعوبة البالغة، وتجدني أقول الاستحالة التي تعترض سبيل القارىء، الذي يود الكتابة على مؤلَّف الدكتور ادوارد سعيد. ولا يعود ذلك إلى تعثر في منهج الكاتب، أو سوء في أسلوب المترجم، أو قصور في استيعاب القارىء - وإن كنا نعترف بأنّا ما زلنا طلاباً وسنبقى - وإنما يعود إلى ذلك الحشد الهائل من الأفكار التي يواجهك بها المؤلف، فيتعذر عليك الاختيار؛ فتعود - بعد مطالعتك للكتاب - أشدّ حاجة إلى المعاودة والتكرار. فالكتاب إذن بحاجة إلى قراءة عمقية متأنية، ويجب أن يترجم إلى لغات العالم كلها، ليعيه كل ذي نطق ويستوعبه. لذلك، سيندرج عملنا في إطار المحاولة التي نرجو لها النجاح، علماً أن الجزء لا يغني عن الكل، وأن الفرع لا يلغي الأساس، وهذا من المسلمات.

يتألف كتاب الدكتور ادوارد سعيد من مقدمة وثلاثة فصول، ويخلو من خاتمة، بالإضافة إلى مقدمة للمترجم، وكشاف لبعض مصطلحاته وهذه سنؤخر الكلام عليها

(★) سعيد (ادوارد): « **الاستشراق** »، ترجمة كمال أبو ديب - مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت ١٩٨١ م، (٣٦٦ صفحة).

لأنها شيء عارض وليست في الأساس.

من البواعث المباشرة على تاليف الكتاب، كما فهمنا من مقدمته، عبارة كتبها صحفي فرنسي يصف فيها الوسط التجاري في بيروت إبّان الحرب الآهلية، يقول: «لقد بدت ذات يوم كأنها تنتمي إلى شرق شاتوبريان ونرفال».

وهنا نظن أن الدكتور سعيد ساءل نفسه: هل يفهم الشرقي عموماً ـ والعربي خصوصاً والفلسطيني بالتحديد ـ حقيقة ما تعنيه عبارة «شرق شاتوبريان ونرفال»؟. ولما كان جوابه بالنفي، شرع في رحلته الكتابية مع الاستشراق، وإن كان بدأها قراءة وتقميشاً قبل ذلك.

في المقدمة يعاين القارىء الشرق، كما عرفه المؤلف في فهم الغربيين: «اختراع غربي... ومكان للتجارب الاستثنائية»، بالإضافة إلى أنه «جزء تكاملي من حضارة أوروبا وثقافتها الماديتين». وللاستشراق في فهمه صور ودلالات كثيرة، أهمها: الدلالة الجامعية الاكاديمية، أو وظيفة القيام بالاختصاصات المتنوعة والدراسات المتشعبة، وغايتها «التعبير» عن الشرق و«تمثيله» بما يخدم مصالح الغرب ومخططاته.

وفيها أيضاً، يعرض المؤلف موضوعات كتابه، فمنها ما يعنى بدراسة أثر الاختصاصات على الشرق، ومنها ما يحاول الكشف عن الخطط التي انتهجها المستشرقون لشرقنة الشرق والسيطرة عليه سياسياً واجتماعياً وعسكرياً وعقائدياً وعلمياً وتخيلياً. ويوضح أن الاستشراق مشروع تضم أبعاده عوالم متباينة تباين الخيال نفسه، والهند وشرقي المتوسط بأكملها، ونصوص الكتاب المقدس وأقاليمه، وتجارة التوابل والجيوش الاستعمارية، والتراث الطويل من الاداريين الاستعماريين، وقدراً ضخماً من تراث البحث، وأعداداً لا تحصى من الخبراء والمساعدين، وجهاز أستاذية شرقية، وكوكبة من الأفكار الشرقية، وعدداً كبيراً من الملل والفلسفات والحِكَم الشرقية المدّجنة للاستخدام الاوروبي. وبالإضافة الى ذلك، يميز المؤلف بين المعرفة الخاصة والمعرفة السياسية، ويولي المسألة المنهجية، والبعد الشخصي لعملية الاستشراق اهتماماً خاصاً، مدركاً بأن المجتمع والثقافة الأدبية لا يمكن أن يُفهما أو يُدرسا إلاّ معاً. كل هذه الأمور يحاول المؤلف أن يجلو غوامضها في فصول كتابه.

والفصل الأول من الكتاب المترجم إلى العربية، وهو بعنوان «**مجال الاستشراق**» يشغل الصفحات (٦١ ـ ١٣٣)، ويشمل الأقسام التالية: ١ ـ التعرُّف إلى الشرق. ٢ ـ الجغرافيا التخيلية وتمثيلاتها: شرقنة الشرق. ٣ ـ مشاريع. ٤ ـ أزمات.

بادىء ذي بدء، يشير المؤلف إلى محاضرة ألقاها بلفور في مجلس العموم البريطاني سنة (١٩١٠ م)، وبلفور الذي يمثّل نموذجاً لحكّام الغرب، يربط بين المعرفة والقوة. فالمعرفة تمنح القوة، ومزيداً من القوة يتطلّب مزيداً من المعرفة، والمعرفة في نظره تعني المسح الكامل لحضارة ما من أصولها الأولى إلى ذروتها. لذلك انكب الاوروبيون منذ عصور سحيقة على دراسة الشرق والشرقي وكأنها في قاعة تدريس، أو محكمة، أو سجن، أو في دليل موجز لأغراض التحليل العلمي. وهذا يعني أن الشرقي اعتبر شيئاً يُدرس ويؤدّب ويُحاكم ويُوضّح. والأمم الشرقية عند بلفور، لم تؤسس من منطلق «حكم الذات»، لأنها غير قادرة على ذلك، مما يحتم على المستشرقين أن يحكموها ويمثّلوها ويعبّروا عن آرائها وتطلعاتها. وهذا يستلزم ضرورة احتلال أوروبا للشرق. فاحتلال بريطانيا لمصر، مثلاً، هو «الأساس الفعلي» للحضارة المصرية المعاصرة، ويكفي أنها أعادت للمصريين اعتبارهم كبشر، عندما أقرّت أنهم سكان لمستعمرات منتجة. فالدراسة الاستشراقية كانت مثقلة منذ البدء بالشعور بالفوقية والدونية، أو الشعور بالتمييز السلالي أو العرقي إذا جاز التعبير. وهذا النوع من الفهم كان عاماً في أوروبا، تأثر به حتى أكثر الكتاب روعة خيال، أمثال: فلوبير ونرفال وسكوت. وهؤلاء خضعوا لضوابط مقيدة في ما يمكن أن

يقولوه عن الشرق. لأن الاستشراق في الأساس رؤيا سياسية للواقع، رؤيا روَّج المستشرقون بنيتها ليفرّقوا بين المألوف (أوروبا، الغرب و« نحن ») وبين الغريب (الشرق، المشرق و« هم ») حسب تعبير المؤلف. وهذا يعني أن تلك الرؤيا خُلقت أولاً، ثم أصبحت واقعاً يعيشه المستشرقون ويألفه الشرقيون. وبعد حين، غدا كل من الرؤيا والواقع متممين لبعضهما البعض، يمنح أحدهما الآخر القدرة على البقاء والاستمرار بما يخدم فهم المستشرقين ومصالح بلادهم. وعلى العموم، فإن الشرق كان في نظر المستشرقين يجسّد العالم القديم، فهو يحن إليه كما يحن إلى الفردوس. ففيه نشأت الأديان، وعرفت الحضارة مهدها الأول، وهذا ما رسّخ الاعتقاد السائد لدى المستشرقين بأن الشرق موضوع أكاديمي وحقل اكتشاف.

ثم يتتبع المؤلف نشأة الاستشراق الرسمي، الذي وُضع موضع التنفيذ منذ انعقاد مجمع ڤيينا الكنسي عام (١٣١٢ م)، وهذا أوصى بتأسيس كراسي الاستاذية للعربية واليونانية والعبرية والسريانية في جامعات باريس واكسفورد وبولونيا وغيرها. نقول الاستشراق الرسمي، لأن محاولة السيطرة على الشرق غارقة في القدم، تتعدى زمن هيرودوتس من المؤرخين والاسكندر من المحاربين. لكن المستشرقين، حتى منتصف القرن الثامن عشر، كانوا من الباحثين في التوراة، أو الدارسين للغات السامية، أو المختصين بالاسلام. وبعد ذلك التاريخ، أضحت كلمة الاستشراق أكثر شمولية واتساعاً، تشمل كل شي، من تحقيق النصوص وترجمتها إلى علم النقود، وعلم الانسان، وعلم الآثار، وعلم الاجتماع والاقتصاد، والتاريخ، والدراسات الثقافية لكل حضارة آسيوية أو شمالي افريقية. والمهم في الأمر أن معرفة الغرب للشرق بقيت « نَصيّة »، أي من خلال الكتب والمخطوطات، بل ازدادت نصيتها مما اقتضى وجود جغرافيا اوروبية متخيّلة تقسّم العالم إلى قسمين: أوروبي وهو القوي الفصيح، وآسيوي وهو المهزوم النائي. والقوي يفصح عن الضعيف المهزوم ويمثله، والإفصاح والتمثيل حق مكتسب للقوي، بل قل من أبسط واجباته الحضارية. وخطورة المعرفة الأوروبية للشرق، أنها كانت تخيلية نصية، أي معرفة مشرقنة، كما أرادها المستشرقون أن تكون، لا كما هي في الواقع والحقيقة. فالاسلام بالنسبة لهم « هرتقة آرية » والنبي محمد « ناشر لوحي زائف » كما يقرر غير واحد من كبار المستشرقين، أو أنه في العمق الثامن من أعماق الجحيم التسعة، لا يليه إلاّ الشيطان وحده، كما يرى دانتي في الملهاة الإلهية. لذلك، قسم ديربيلو التاريخ في « المكتبة الشرقية » إلى نوعين: مقدّس، وكان فيه اليهود والمسيحيون، ومدنّس وفيه المسلمون، كما يقول المؤلف. ومكتبة ديربيلو وملهاة دانتي من الثوابت التي يعرفها كل من درس الشرق أو تعامل معه. والاعتماد على النص المتخيل، خلق نوعاً من « الانشاء » الاستشراقي أو المشرقن، وهذا ما نجح في خلقه المستشرقون.

ويلحظ المؤلف أن الشرق الأقصى لم يكن يشكّل تحدياً لأوروبا حتى القرن التاسع عشر، لكن الشرقين العربي والاسلامي، وحدهما، واجهاها بتحدٍ لم تجد له حلاً على الصعد السياسية والفكرية والاقتصادية. فانكب الاوروبيون على دراسة الاسلام وشرقنته، وصياغة تعاليمه في نصوص انشائية تخيلية أضحت ثوابت ومسلمات عند أجيالهم. فدراسة الاسلام والشرق كانت لهضمها واحتوائهما واخضاعهما للسيطرة الاوروبية، خصوصاً أنها اعتمدت على النصوص الاستشراقية القديمة. فنابليون، مثلاً أدرك أن مشروع إقامة امبراطورية بونابارتية في الشرق قابل للتحقيق قبل أن تطأ أقدامه أرض الشرق، لأنه عرف مصر تكتيكياً واستراتيجياً وتاريخياً ونصياً. وهذا يعني، أن مشروعه اكتسب في ذهنه وجوداً حقيقياً قبل أن يجسد حقيقة عسكرية على الأرض.

وتحت عنوان أزمات، يرى المؤلف أن « المعرفة »

الاستشراقية كانت تعتمد أساساً على «النص» (الانشاء) لتركيز «السلطة»؛ وأكثر تلك النصوص كانت «تخيلية»، لا تصوِّر الواقع تصويراً مبدعاً أو حتى ناسخاً. فالشرق، كما نقله المستشرقون إلى قرّائهم، ليس كما هو في الواقع، بل كما شُرقن وخُطِّط له أن يكون. لذلك، أضحت عملية تطبيق النص الانشائي المشرقن على الشرق والشرقيين أزمة، خلقت عند الاوروبيين الشعور بالفوقية والدونية، وجعلت الشرق يُعاين بوصفه من مخلوقات الغرب التي يجب أن تُحكم وتُمثّل وتُوطأ بالمناسم.

والفصل الثاني، وهو بعنوان **«البنى الاستشراقية وإعادة خلق البنى»**، يشغل الصفحات: (١٣٥ - ٢٠٩)؛ ويشمل الأقسام التالية: ١ - حدود أعيد رسمها، قضايا أعيد تحديدها، والدين المعلمن. ٢ - سلفستر دو ساسي وأرنست رينان: علم الانسان العقلاني والمختبر فقه اللغوي. ٣ - الاقامة في الشرق والبحث، متطلبات المعجمية والخيال. ٤ - الحج والحجاج، بريطانيين وفرنسيين.

كان الاسلام وأقاليمه في نظر المؤلف يشكّلون محور الاستشراق الاوروبي حتى القرن الثامن عشر، لكن المستشرقين الذين جاءوا بعد ذلك التاريخ، وفلوبير بالتخصيص، جعلوا البنى الاستشراقية فرعاً من فروع المعرفة التي تنتمي بدورها إلى المعتقدات العلمانية وشبه الدينية. كما أنَّهم مهَّدوا الطريق أمام الاستشراق الحديث الذي ارتكز على أربعة عناصر: **التوسع**، كانت الدراسات الاستشراقية تكاد تكون محصورة في أقاليم الديانات السماوية، ومع القرن التاسع عشر، أخذت بالتوغُّل إلى خارج حدود العالم الاسلامي، لكن الفوقية الاوروبية سياسية كانت أم غير ذلك، بقيت في مقابل الدونية الشرقية. ونتج عن ذلك، التوسع الزماني والمكاني إذ حلّ محل الأطر النصية التي قلّ الاعتماد عليها. وإلى جانب التوسع، هناك **المجابهة التاريخية بين الحضارات**، «فمعرفة الشرقي» كانت تلقى التشجيع والدعم من الرحالة والمستكشفين، ومن المؤرخين الذين شجعوا المقارنة بين الحضارات الفوقية والدونية. ونتج عن ذلك، أن القدرة على التعامل التاريخي مع الثقافات غير الأوروبية، وغير اليهو - مسيحية حسب تعبير المؤلف، قد ازدادت قوة، وأصبح فهم أوروبا للشرق فهماً أكثر معقولية، وهذا يعني فهم العلاقة الموضوعية بين أوروبا وبين حدودها الزمانية والثقافية.

والعنصر الثالث هو ما يسميه المؤلف **بالتعاطف**، وذلك بأن يضطر الغرب تحت وطأة مصالحه، أن يقلّل من حدّة الصراع الديني، وأن يتظاهر بالتعاطف مع مطالب الشعوب الشرقية ذات النزعة الانسانية. ونتج عن عملية التوحيد تلك وإن تكن ظاهرية، أن تخلّت أوروبا عن دور موظف الجمارك إلى حدٍّ ما، واكتسبت مفاهيم الترابط الانساني مفهوماً جديداً. ثم هناك **التصنيف**، وهو نزوع إلى تصنيف الطبيعة والانسان بحسب العرق والجنس والأصل واللون والمزاج والشخصية، ونتج عن ذلك أن تصنيفات البشر تجاوزت ما أسمي ذات يوم الأمم المقدَّسة والأمم المدنَّسة.

ورغم أن هذه العناصر تمثل اتجاهاً معلمناً خاصاً، فإن ذلك لا يعني أن الأنساق القديمة للتاريخ الانساني قد أُزيلت، بل أعيد تركيبها وتوزيعها، وأعيدت موضعتها ضمن أطر علمانية أوجبت وجود مفردات لغة علمانية تنسجم معها. وبإيجاز، فإن المستشرق إذ نقل الشرق إلى الحداثة، كان يرى في نفسه خالقاً علمانياً، وإنساناً صنع عوالم جديدة، خصوصاً أن تراثاً من الاستمرارية العلمانية سيتكوَّن، ونظاماً واعياً من المنهجيين الانضباطيين سيتحقق، سيَّما أن أخوَّتهم لا تقوم على وشائج القربى والدم، بل على إنشاء مشترك وعلى تطبيق عملي، ومكتبة، وطقم من الأفكار المتوارثة، كما يرى المؤلف.

وخطا سلفستر دو ساسي خطوات هامة في تحديث

الاستشراق، وذلك حين تصرف في كتاباته تصرُّف رجل كنيسة متعلمن، كان شرقه وطلابه بالنسبة إليه مذهبه العقائدي، ورعايا أبرشيته في آن. وبعبارة أخرى، فإن العرض التعليمي للطلاب والقصد الصريح إلى التكرار عن طريق التنقيح، هما من خصائص ساسي الذي اتسمت كتاباته بعملية المسح الشامل للمختارات العربية. فساسي، يتحدث عن عمله بوصفه قد كشف كمية هائلة من المادّة المبهمة وأضاءها، وكانت النتيجة إنتاج مادة حول الشرق ومناهج لدراسته، وأمثلة لم يكن حتى الشرقيون يمتلكونها. وتتمثَّل اهمية ساسي في كونه عالج الشرق بوصفه شيئاً ينبغي أن يرمَّم، وبكونه قدَّم الشرق للغرب في هيئة حضور شرقي، أي شرق شرعي رسمي. وذلك يعني أنه موْضَعَ العرب في الشرق وموْضَعَ الشرق بالنسبة لأوروبا. وبكونه أستاذاً، انتشر طلابه في جامعات فرنسا واسبانيا والنروج والسويد والدانمرك والمانيا. وتماماً، كما كان ساسي أبا الاستشراق الحديث، فقد كان القربان الأول في ميدانه، لأن المستشرقين اللاحقين بترجمتهم لنصوص جديدة وشذرات ومقتبسات عربية، أزاحوا عمل ساسي عن مكانته بصورة كلية وحلُّوا محله بتقديمهم لشرقهم المرمَّم الخاص.

لكن قبسات ساسي الاستشراقية، استمرت على يد مستشرق آخر، هو رينان الذي ربط الشرق بأكثر فروع المعرفة المقارنة، وكان فقه اللغة من أبرزها. فرينان، قارن بين اللغة السامية واللغات الهندو ـ أوروبية، فوجد أن السامية مفكَّكة، في حين أن الهندو ـ أوروبية متكاملة العضوية. وهذا ما أجاز له إعادة تركيب تلك الظاهرة، التي تشكل في نظر الدكتور سعيد مظهراً من المظاهر الاستعمارية، لأن الظاهرة يجب أن تُدرس بمعزل عن آراء دارسيها، الذين يتوجَّب عليهم الحياد والتجرُّد والموضوعية، وهذا لم يتيسر لرينان. فرينان جاء إلى الاستشراق من فقه اللغة، خصوصاً أنه كان يقول بعدم المساواة بين الشعوب، ويدعو إلى السيطرة الاوروبية على الشرق، لأن السامية ارتبطت في ذهنه بالتخلُّف والانحطاط الاخلاقي والبيولوجي، في حين ارتبط الاستشراق وأوروبا بالتقدُّم والفوقية. وعلى أي حال، فإن المخلوقات السامية عند ساسي مخلوقات من صنع فقه اللغة الاستشراقي، وبالتالي من خلق مختبره الفقه ـ لغوي، مع ما في ذلك من رمز للسيطرة الاوروبية على الشرق، وبالتحديد لسيطرة «أناه» هو على عصره. فبين ساسي ورينان فرق ما بين التدشين والاستمرارية؛ فساسي، هو البادىء المؤصِّل، الذي كان مذهبه متجذِّراً في رومانسية القرن التاسع عشر الثورية. وفضلاً عن ذلك، فإن جهوده كانت فردية. وهي التي بدأت حقل الاستشراق ومنحته الحيوية والقوة. في حين كان رينان، ينتسب إلى جيل المستشرقين الثاني؛ فكان طبيعياً أن يمنح الاستشراق الرسمي التماسك والصلابة والاستمرارية، بالإضافة إلى أن أقلمته للاستشراق مع فقه اللغة، وأقلمة كليهما مع ثقافة عصره الفكرية، منحت البنى الاستشراقية ديمومة فكرية وجعلتها أكثر بروزاً للعيان.

ويشير المؤلف الى المستشرقين الجدد والاسلام، فهناك وليم موير وكتاباه: «حياة محمد» و«الخلافة: سموّها وانحطاطها وسقوطها». وهناك أيضاً: راينهارت دوزي، وكتابه ذو المجدات الأربعة: «تاريخ مسلمي اسبانيا حتى الفتح الاندلسي من قبل المرابطين». وهناك رينشارد بيرتن، وكتابه «مسرد شخصي لرحلة حج إلى المدينة ومكة». وادوارد لين، وكتابه: «مسالك المصريين المعاصرين وعاداتهم». وكوسان دو برسيفال، وكتابه: «مقالة في تاريخ العرب قبل الاسلامية وخلال عهد محمد». ومؤلفات شاتوبريان ولامارتين وفلوبير ونرفال وغيرهم، ممن كانت مؤلفاتهم لا تنفق من حيث الانشاء النصي أو المعرفة المتخيلة وحسب، بل من حيث اعتمادها المتفقّه على دراسة الشرق، بوصفه اختراعاً غربياً، يجب أن يحكم ويمثَّل، ومن حيث أنها شكَّلت مكتبة استشراقية تأثر بها بلفور وكرومر وكل من تعامل مع الشرق. لكل

المستشرقين الجدد يقسّمون، حسب رأي المؤلف، إلى ثلاثة أنواع: **أولهم** المستشرق، الذي يقيم في الشرق لغرض محدد وهو تزويد الاستشراق بمادة علمية، ويعتبر إقامته شكلاً من أشكال الملاحظة العلمية، و« لين » مثالهم الأسمى؛ فلين يكتسب شرعية بحثه وموثوقيتها بالتدخُّل في المجرى السردي للحياة الانسانية، فهو يُشرّح المصريين مثلاً، من أجل العرض، ثم يجمعهم ويخلقهم كما يريد، وذلك خدمة للمعرفة الأوروبية العامة. **وثانيهم** الكاتب، الذي يسعى إلى الغرض نفسه، غير أنه أقل استعداداً للتضحية بالشذوذية المميزة لوعيه الفردي من أجل التحديدات الاستشراقية اللاشخصية، ويُعتبر « بيرتن » المثال عليهم. **وثالثهم** المستشرق، الذي تكون الرحلة الحقيقية أو المجازية إلى الشرق، بالنسبة إليه تحقيقاً لمشروع ملح ونابع من انفعال ذاتي عميق، لذلك يأتي نصّه مبنياً على جالات شخصية، ويعتبر « نرفال » المثال الحقيقي لذلك.

ثم يتتبع الدكتور سعيد رحلة الحجاج الفرنسيين والبريطانيين. فالفرنسيون بالإجمال لم يبحثوا في الشرق عن حقيقة علمية، بقدر بحثهم عن حقيقة غريبة، وبالتالي عن ذواتهم. لذلك، وجدوا في الشرق مكاناً يتعاطف مع أساطيرهم وهوسهم ومتطلباتهم الفردية الخاصة. فلامارتين، مثلاً، يكتب عن نفسه، وعن فرنسا بوصفها قوّة ذات نفوذ في الشرق؛ لذلك تجاوزت « أناه » شخصه، وتوحّدت في قوة أوروبا ووعيها الحضاري المتفوّق. أمّا الحجاج البريطانيين فتجاوزوا ذلك، وسعوا جاهدين لبسط سلطتهم وإدارتهم على الشرق المستضعف.

والفصل الثالث، وهو بعنوان « **الاستشراق الآن** » يشغل الصفحات (٢١١ - ٣٢٥)، ويشمل الأقسام التالية: ١ - الاستشراق الكامن والظاهر. ٢ - الأسلوب، المعرفة الخابرة والرؤيا: دنيوية الاستشراق. ٣ - الاستشراق الانجلو - فرنسي الحديث في ذروة الازدهار. ٤ - المرحلة الأخيرة.

كان المستشرقون، قبل القرن الثامن عشر، يعتمدون التصنيف الأفقي والعمودي للكائنات الشرقية وللغاتهم وبلدانهم، ونتج عن ذلك ما يعرف بالفوقية والدونية. ولكن مع وليم روبرتسون سميث، وكتابه: « حول علاقات القرابة والزواج العربية »، أقيمت علاقات ثقافية وثيقة بين الانسان الاوروبي كدارس ومنقب وباحث، وبين الانسان الشرقي كموضوع للدراسة والبحث. ومع القرن العشرين، سعى الغرب جاهداً للمحافظة على الشرق والاسلام ككيانين، لكن تحت سيطرته. وأخذ المستشرقون يتسابقون في رفع شأن الشرق، وتحويل واقعه الخامل إلى شيء من الفعالية والحركة، لكن غايتهم الرئيسة كانت طبع فعالية الشرق وحركته بالطابع الاوروبي، في محاولة لاحتواء الشرق الجديد ضمن رؤيا أوروبية جديدة. وبعد الحرب العالمية الأولى، نما الشعور الاستقلالي في الدول الشرقية، واندلعت الثورة العربية وأيّدها الحلفاء، وبرزت قضايا ومصطلحات جديدة كالاحتلال والانتداب والاستقلال والحكم الذاتي؛ وكل ذلك فرض على الغرب دراسة الشرق من جديد في محاولة استشراقية جديدة، لكنها بقيت تنضح بالخوف الاوروبي من الاسلام، وأضحى كل مستشرق من المحدثين، يمثل مدرسة فكرية خاصة ترتبط جذورها بالتراث الاستشراقي القديم وبالمصالح الاقليمية للبلدان التي ينتمي إليها.

أما الحركة الاستشراقية في أميركا، كما يراها الدكتور سعيد، اتضحت معالمها بعد الحرب العالمية الثانية، وبدأت أهمية الانسان العربي، على الصعيدين الشعبي والحكومي، تتخذ أبعاداً جديدة عقب كل حرب عربية - اسرائيلية. لكن الكتب والمؤلفات التي تناولت الموضوعات العربية والاسلامية، بقيت تنظر إلى المعرفة النصيّة المكتوبة في القرون الوسطى وعصر النهضة. فمؤلفات « برنارد لويس »، مثلاً - وإن اتخذت طابعاً ليبرالياً - بقيت تنضح بالموقف العدائي للاسلام والعروبة، وبأمثاله تأثر صانعو السياسة في أميركا. وهنا، يشير الدكتور سعيد الى أن الاسلام شيء والدول الشرقية شيء آخر، ولا يجوز

للأوروبيين والأميركيين أن يحمّلوا الاسلام ومعتقداته جريرة تأخر الشرق وانحطاط الشرقيين. فلا بد إذن من تصويب النظرية الاميركية إلى الاسلام والعروبة والشرق، وتصحيح النظرة الاستشراقية كلها بجعلها أكثر موضوعية، خصوصاً أن العالم العربي يرتبط بالعجلة الأميركية، حضارة وثقافة وسياسة.

وإذا كان كتاب الدكتور سعيد، قد انصب في مجمله على جهود المستشرقين ذوي النظرة «الصفيقة» إلى الشرق، فإنه لا يبخس أمثال «كليفورد غيرتز» و«جاك بيرك» و«مكسيم رودنسون» حقهم، فهؤلاء ما فتئوا يقومون بفحص المسلّمات، وبالنقد المستمر قبل الوصول إلى النتائج؛ وهذا أقصى ما نطلبه نحن من المستشرقين ليصلوا إلى الحقيقة.

وعلى العموم، فإن كتاب الاستشراق غني بمادته، ويعكس ثقافة المؤلف التي تستحق الاحترام، سيّما أنه موجّه إلى قراء العالم بأسره. فان يعرف المرء نفسه، وأن يعرف كيف يفهمه الآخرون، من الضرورات الهامة في عملية التعامل الصحيح والبناء المستقبلي. ويمكن القول، إن المؤلف قلّب الاستشراق على أوجهه المتعددة، مما جعلنا نتطلّع إلى ما قاله ابن رشيق في ابن الرومي: «كان ابن الرومي ضنيناً بالمعاني حريصاً عليها، يأخذ المعنى الواحد ويولّده، ولا يزال يقلبه ويصرفه في كل وجه، حتى يميته ويعلم أنه لا مطمح فيه لأحد...». ونحن نظن أن الدكتور سعيد نجح إلى حدّ بعيد في عمليتيْ «التقليب والإماتة»، أو أنه نجح، على الأقل، في طرح قضية الاستشراق برمتها طرحاً جديداً، بما أثار من معرفة وسلطة وإنشاء وحثّ على الرودان في دنيا الاستشراق من جديد. ورغم ذلك، فإن المؤلف وقع في «التعميم»، خصوصاً حين جعل هدف الاستشراق سياسي في المطلق، وحين رأى في الاسلام التحدّي الوحيد الذي واجهته أوروبا في الشرق، وحين حصر معرفة المستشرقين بشرق وهمي خيالي إنشائي نصيّ ومشرقن. وإلى جانب ذلك، يبدو أن اطلاع المؤلف على شرقنا غير كاف، لأن ثمة أفكاراً قررها المستشرقون «عنّا» فيها شيء من الصحة، وإن كان فيها الشيء الكثير من المبالغة.

وأمّا ما يختص بالترجمة، فإنها ليست سيئة، رغم النص الذي يعترض فهم القارىء في كثير من الأحايين، خصوصاً أن المترجم الدكتور كمال أبو ديب، اعتمد أسلوب الجمل المعترضة التي جاءت طويلة، ومثالنا على ذلك ما يقوله: «ولقد كان الفضاء الجغرافي للشرق ـ في الشكل البعيد الكلاسيكي والنائي زمنياً غالباً، والذي أعاد به المستشرق بناء الشرق، وفي الشكل الفعلي بدقة الذي عيش فيه الشرق الحديث، ودرس أو تخيّل ـ قد اخترق، أو صُيغ ودُرس، أو امتُلِك»[٢]. فالجملة المعترضة هنا طويلة لا تخدم فهم القارىء، وبالتالي فقدت مبرر اعتمادها كأسلوب توضيحي. ولعل مردّ ذلك إلى ما لحظه المترجم نفسه من صعوبة في مراعاة عقل المؤلف، وطبيعة اللغة الانكليزية، وإلى قصور في مفردات العربية السائدة، عن مجاراة تطوّر الغرب الثقافي والعلمي والتكنولوجي. وفي ذلك، يلتقي مع دعوات تطلق من هنا وهناك، تطالب بتطوير اللغة العربية وجعلها أكثر حداثةً وغنىً ومرانة، لذلك. فهو يستخدم عدداً من الصيغ والألفاظ والتراكيب يحمل بعضها دلالة واضحة للقارىء، وبعضها ذو دلالة تختلف عن دلالته في الاستخدام اللغوي المألوف، وبعضها لا دلالة محددة له في سياق اللغة العربية؛ يجمع تلك الصيغ والمصطلحات الجديدة في كشّاف خاص، قد تكشف الأيام عن ضرورتها في الاستخدام العربي.

الحواشي

(١) نشير إلى أن عدداً من الكتّاب سبقوا الدكتور سعيد في هذا المجال، نذكر منهم:

– Abdel Malek (Anwar). «Orientalism in Crisis». Diogene 44 (Winter 1963)

(٢) نذكر من الدراسات التي صدرت حول الكتاب في الدوريات العربية:

- أبو زيد (أحمد): «الاستشراق والمستشرقون» - مجلة عالم الفكر، العدد ٣، يوليو - أغسطس - سبتمبر، سنة ٧٩ م، (ص ٢٥٥).
- رزق (أسعد): «مقدمة في معاني الاستشراق» - مجلة شؤون فلسطينية، آب ٧٩ م، (ص ٢٣٦).
- سمعان (خليل): - مجلة مجمع اللغة العربية، نيسان ٧٩ م، م ٥٤، ج ١، (ص ٤٨٧).
- **شريح (محمود): «حول الحركة الاستشراقية»** - الفكر العربي المعاصر، العدد ٢، ت: ٢/٦/٨٠، (ص ٧١).
- صايغ (روز ماري): - قضايا عربية، م ٧، عدد ٢، ٥ أيار/٨٠ م، (ص ٣١١).
- سلامة (غسان): «عصب الاستشراق» - المستقبل العربي، العدد ٢٣، ك٢ ٨١ م، (ص ٤).
- العظم (صادق جلال): «الاستشراق والاستشراق معكوساً» - دار الحداثة، بيروت، ٨١ م.

(٣) - سعيد (ادوارد): «الاستشراق»، ترجمة كمال أبو ديب، (ص ٢٢١).